

من أسرار الإعجاز

للمرحوم الأستاذ مصطفى صادق الرافعي

كنت أرجع إلى نابغة الأدب مصطفى صادق الرافعي في تفسير بعض آيات من القرآن الكريم لأستورى بذلك زبد قريحته واستدر ضرع بلاغته . وكان قلعة يجرى في هذا التفسير على التراطاس مصرعاً على غير عادته في سائر ما يكتب لمن رسائل مما يدل على تدفق الماني التي يوحى بها إليه ، وإشغالها من خاطره النياض عليه . وأني أتعف قراءة الرسالة الغراء بشيء من هذا التفسير البليغ المعجز .

عمود أبو ربه

—•••••—

— تفسير آية « زين للناس حب الشهوات »

راجعت عن آية « زين للناس » تفسير الشيخ محمد عبده ، وتفسير الألوسي فلم أرف فيها ما يهدي إلى السر في هذه الآية ، والمفكرون جميعاً متفقون على أن « حب الشهوات » يراد به الشهوات . والمعنى : زين للناس الشهوات من النساء الخ ، وهذا يجعل الآية موضع تقدي ويذهب بسر التعبير (بحب الشهوات) وإعجاز هذه الآية هو في لفظة (حب الشهوات) . فلو قال :

المهية جميل الطلعة أخذ منظاره بمجامع قلبي فدعوته إلى الطعام فأني ، فقلت : من أين أثبت ؟ قال : من وراء النهر . قلت وأين تريد ؟ قال : الحج . قلت في هذا الوقت ؟ . وقد كان أول يوم من ذى الحجة أو ثانيه ، فقال : يفعل الله ما يشاء . فقلت : الصعبة . قال : إن أحببت ذلك فمعدك الليل ، فلما كان الليل جاءني فقال : قم باسم الله . فأخذت ثياب سفرى ، وسرنا نتمشى كأنما الأرض تجذب من تحتنا ، ونحن نمر على البلدان ، وتقول هذه قلانة وهذه فلانة ، فإذا كان الصباح فارقتي ؛ وقال : موعدك الليل ، فإذا كان الليل جاءني ففعل مثل ذلك فانتهينا إلى مدينة الرسول ، ثم سرنا إلى مكة فجئناها ليلاً ، فقضينا الحج مع الناس ثم رجعنا إلى الشام فزردنا بيت القدس . وقال إنى عازم على الإقامة بالشام . فرجعت أنا إلى بلدي بلخ

عبد الموجود عبد الحافظ

المشتهيات أو الشهوات ، أو حب النساء لا كان ذلك شيئاً . والشهوات وظائف طبيعية في الناس فكونها زيت للناس أمر لا معنى له وليس فيه جديد ؛ ولكن (تزيين حبا) هو السر كل السر لأن حبا هو سبيل الحرص عليها ، والإكثار منها كالذي يجسد مالا يندفع به ؛ ظلال في نفسه منعمة وليس في ذلك شيء عجيب ؛ ولكن الذي يتلى « بحب » المال تنقلب فيه هذه المنفعة ضرراً فيبخل ويتلى بالحرص ثم يتليه الحرص على المال بمحق حياته كلها .

فالشأن إذن ليس في المشتهيات ولا في الشهوات ولكن في (أحب الشهوات) . ثم أن حب الشهوات متى كان سبباً في الحرص عليها والإكثار منها فهو خطأ وضرر ، فإذا (زين) ذلك للانسان كان أشد ضرراً وأمن في باب الخطأ . وهذه هي حكمة استعمال (زين) فكان هناك ثلاث درجات : الشهوة وهو عمل طبيعي ، ثم حب الشهوة ، وهذه إضافة جديدة من العقل تزيد فيها ، ثم تزيين هذا الحب ، وهي إضافة ثانية تزيد الزيادة وتضاعف الخطأ . وعلى هذا تلحق الشهوات في هذا الترتيب بالحد الخارج عن العقل ، وهذا الحد هو أول الجنون ، كما يشاهد في ذهاب أثر العقل وتصف حكمه ، عند « تزيين شهوة محبوبة » بحيث لا يبقى للعقل حكم ولا حكمة مع هذا التزيين ا

وجعلت « زين » مبنية للمجهول لأن بعض هذا محبوب محمود فهو من زينة الله ويدخل في قوله تعالى (قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده) وبمضه مذموم مكره فهو من تزيين القرائن الفاسدة ، وبمضه حق وجنون فهو من تزيين الشيطان . والفرض من الآية تجاوز الحد المقول من شهوات الدنيا ، فإن تجاوزه يجعل الدنيا هي الغاية ، مع أنها وسيلة فقط ، ولهذا قال (ذلك متاع الحياة الدنيا) ثم إنه قال « حب الشهوات » بالجمع ، ولم يقل الشهوة فتكون (الشهوات) مختلفة متباينة تقدر كل واحدة باعتبارها الخاص في الأصناف التي وردت في الآية ، فالشهوة للنساء غيرها من البنين ، وهذه غيرها من المال ، وهذه غيرها من الخيل المسومة الخ فكل واحدة ذات شأن خاص في النفس كما هو مشاهد ، ولكن الجنون بها كلها متى (زين حبا)

في النفس) شيء واحد .

وانظر الحكمة المجيبة في الترتيب . فالنساء شهوات من الفريزة والماطفة ، والبنين شهوات من الماطفة والنفس ، والمال الكثير من النفس فقط ، والحليل السومة والانام والحرت؛ هذه الثلاثة تارة جزاء من المال ، وتارة جزاء من عاطفة النفس كما ينرم بالحليل بعض الناس أو بالانام أو بالزراعة ، ولذلك جاءت في الآية بعد النساء والبنين لأنها لاحقة بالفريزة والماطفة والنفس . ويدخل في الحليل السومة كل ما يقتنى للباهة والزينة أو لأفراض القوة على اطلاقها ومنه السيارات والطائرات الخ . ويدخل في الانام كل ما يقتنى للتجارة والكسب ، وفي الحرت كل ما يقتنى للأعمال والايجاد ومنه المصانع والمامل الخ . فإذا حققنا هذا وجدنا هذه الأبواب جامعة لكل الشهوات الناشئة من جميع قوى الجسم الإنسانى والنفس الإنسانية .

أما ما كان خاصا بشهوات العقل فلا يدخل في الآية ، وهذا من أعجب إعجازها ، لأن أمور العلوم والفنون (لا ترين) إلا لفريق محدود من الناس ، أى لا يزين حب الشهوات منها ، وهذا الفريق عادة هم النوابغ المبقريون ، وهؤلاء المبقريون في الحقيقة لا يجردون من العلوم والفنون « متاع الحياة الدنيا » ولكن مصائب الحياة الدنيا ... (١)

تفسير آية «ويعبدون من دون الله مالا يملك لهم رزقاً»
وسألناه عن موضع لفظ (شيئاً) من الآية الكريمة
« ويعبدون من دون الله مالا يملك لهم رزقاً من السموات والأرض - شيئاً - ولا يستطيعون » من سورة النحل فأجاب رحمه الله :

أما تفسير الآية التي سألت عنها فقد راجعت التفسير أول من أمس فلم أر فيها ما يقنع . والذي ظهر لى أن (شيئاً) في الآية يدل (من رزقاً) وهذا الاعراب فيه إليه المفسرون وجملوه ضميفاً

مع أن فيه كل القره ، لأن المراد من الآية أن هؤلاء « يعبدون من دون الله مالا يملك لهم رزقاً من السموات والأرض » وهنا يمترض هؤلاء أنفسهم بأنهم يمتقدون أن معبوداتهم تلك ذلك وإلا فلم عبدوها ؟ فجاءت لفظة (شيئاً) لبيان أن كل ذلك وهم وتخييل وضلال إذ لا معنى للرزق إلا إذا كان (شيئاً) لا رهماً فقط ، ولا شيء ترزقه هذه المعبودات من السموات والأرض . فإذا كانت لا ترزق شيئاً على الاطلاق ، فهمى على الاطلاق ليست شيئاً إلا ما توهموه منها ، وهذا كالذى توهموه فيها فالأمر فيهم رفيها كله وهم وضلال ، ولهذا جاء بعد ذلك (ولا يستطيعون) ، وعبر هنا بضمير الجمع العاقل ، مع أن أول الآية (مالا يملك) فدللت الكلمة الأخيرة على أن المراد أن هؤلاء العاقلين ومعبوداتهم كالأوهام المحضة ، لا هى تستطيع أن ترزقهم شيئاً كأنها ما كان من السموات والأرض أى ولودرة ، ولا هم يستطيعون أن يحملوها قدرة على شيء من ذلك .

(فشيئاً) هذه ممجزة الآية كلها ، ويستحيل أن يقبها إليها عقل بشرى ويحبي بها في هذا الوضع . وتكون النتيجة التي ترى إليها الآية بهذا التعبير : أن المعبود الحق هو القوة الأزلية المالكة للايجاد المطلق ، أى الواحد الأحد وهو الله لا غيره وما عدا ذلك فهو من اختراع أوهام الناس ؛ موجود في الوهم معدوم في الواقع والمعنى . أليست هذه الكلمة الواحدة (شيئاً) تستحق أن يسجد لها أهل البلاغة يا أبارية ؟

أنقل هذا التفسير وأرسله في ورقة على حدة لنضمه مع مذكرات أسرار الإعجاز فإن هذه الكلمة التي تظهر كالزائدة في الآية ، هى سر الآية كلها ، وهذا كله كالأعجاز من الإعجاز (راكتب لى هذه العبارة أيضاً في ورقة التفسير (١))

مصطفى صادق الرافعى